التعليقات الجامعة على الأصول الثلاثة والقواعد الأربعة

الشيخ أبو أنيس

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح القواعد الأربعة

التوحيد لغة: هو مصدر وحّد يوحد و معناه الإفراد ، وحدت فلانا بالمحبة أي لم أحب معه غيره.

التوحيد شرعا: هو إفراد الله بما يختص به من الربوبية و الألوهية و الأسماء و الصفات.

فهو ثلاثة أقسام:

أولا: توحيد الربوبية: و هو إفراد الله بأفعاله كالخلق و الملك و التدبير و الرزق، و الدليل قوله تعالى: (ألا له الخلق و الأمر) **وجه الدلالة**: أنه قدم (له) و حقها التأخير و أخر (الخلق و الأمر) و حقها التقديم تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر و الاختصاص يعني إثبات الحكم المذكور و نفيه عما عداه، فدلت هذه الآية على أن الله منفرد بالخلق و الأمر الذي هو التدبير.

إشكال و الجواب عنه : إن قيل: ما الجواب عن قول الله تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) و قوله كما في البخاري في الحديث القدسي عن المصورين (و من أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي) حيث أثبت هذان النصان خلقا لغيره ؟

الجواب على هذا أن الخلق قسمان:

١- إيجاد من عدم و هذا يختص بالله و لا يُنسب إلى غيره، و هو المذكور في قوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا و لو اجتمعوا له) .
٢- خلق بمعنى التحويل من صورة إلى صورة كجعل الحديد بابا و نحو ذلك، فهذا خلق يستطيعه المخلوقون وهو المذكور في النصين الواردين في الإشكال.

ملاحظة : الإثبات المجرد لا يمنع المشاركة و النفي المجرد عدم ، و لا بد في التوحيد من الجمع بين النفي و الإثبات، فلو قلت: **لا قائم في الدار** فهذا عدم، و لو قلت: **محمد في الدار قائم** فإنك و إن اثبت له القيام فلا يمتنع أن يشاركه غيره فيه، و لا سبيل إلى إفراده بالقيام إلا بالجمع بين النفي و الإثبات، فتقول: **لا قائم في الدار إلا محمد** .

فلو استدل رجل على توحيد الربوبية بقوله تعالى (الله خالق كل شيء) لكان استدلاله خطأ و ذلك لأن غاية ما في الآية اثبات الخلق لله و هذا الاثبات لا يمنع أن يشاركه غيره في الخلق.

ملاحظة : يوجد لدينا دليل و مدلول و وجه دلالة، فالدليل هو النص من الكتاب و السنة و المدلول هو الحكم المستنبط من الدليل و وجه الدلالة هو العلاقة بين الدليل و المدلول أو الطريقة التي استنبط فيها الحكم الشرعي من النص.

ثانيا: توحيد الألوهية: ويسمى الإلهية و يسمى توحيد العبادة و هو إفراد الله بالعبادة، و الدليل قوله تعالى (و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحسانا) .

أنواع العبادة :

العبادة لغة: مأخوذة من الذل، يقال طريق معبد أي مذلل.

العبادة شرعا: تعرف باعتبارين:

١- **باعتبار كونها فعلا للمكلف:** هي كمال الحب مع كمال الذل لله تعالى، قال ابن القيم:

و عبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان

و عليهما فلك العبادة دائر ما قام حتى قامت القطبان

٢- **باعتبار الأمور التعبدية أي ما يتعبد به لله تعالى:** و قد عرفها ابن تيمية بقوله: اسم جامع لكل ما يحبه الله و يرضاه من الأقوال و الأعمال الظاهرة و الباطنة.

فهي بهذا الاعتبار أربع أقسام :

أ- قولية ظاهرة: كالتسبيح.

ب- فعلية ظاهرة : كالطواف.

ج- قولية باطنة : و هي تصديق القلب و إيمانه .

د- فعلية باطنة: كالخشوع.

<u>ثالثا:</u> توحيد الأسماء و الصفات: وهو إفراد الله بأسمائه و صفاته على و جه لا يماثله فيما دلت عليه من معاني الكمال أحد، و إفراد الله بأسمائه و صفاته يكون بأمرين:

ا- ألا يثبت لأحد من الخلق نفس المعنى الذي يثبته لله .

ب- ألا تطلق الأسماء و الصفات التي تختص بالله على غيره .

و الدليل على إفراد الله بالأسماء قوله تعالى (و لله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ، أصل الكلام أن يقال: الأسماء الحسنى لله و لكنه قدم ما حقه التأخير و تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر و الاختصاص، و أما الدليل على إفراد الله بالصفات قوله تعالى (ولله المثل الأعلى) و المثل هو الوصف، قال تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون)، أي وصفها .

أهل البدع كالأشاعرة و الصوفية يعترض على تقسيم التوحيد و يقولون إنه تقسيم محدث لا دليل عليه، و الجواب على هذا:

أن استقراء النصوص قد دل على تقسيم التوحيد إلى هذه الأقسام، فكما أن العلماء نظروا في النصوص التي فيها أحكام الصلاة فقسموا أجزاء الصلاة إلى أركان و واجبات و مستحبات و هيئات ولم ينكر ذلك أحد، وكما أن علماء اللغة قد نظروا في الكلام فقسموه إلى اسم و حرف و فعل و لم ينكر ذلك أحد، فكذلك علماء الاعتقاد نظروا فوجدوا أن توحيد الله لا يخرج عن ثلاثة أقسام: إما أن يوحَد بأفعاله أو أن يوحد بأفعال العباد أو أن يوحد بأسمائه و صفاته، و تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام ليس عبادة يتقرب بها إلى الله و إنما هو من باب تقريب العلم إلى طلابه فلا يقال إنه محدث، و قد استأنس بعض أهل العلم بقول الله تعالى (رب السموات و الارض و ما بينهما فاعبده و اصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) حيث جمعت هذه الآية أقسام التوحيد الثلاثة .

تنبيه: بعض أهل العلم يقسم التوحيد إلى قسمين :

١- **توحيد علم و اثبات:** و يدخلون فيه توحيد الربوبية و الأسماء و الصفات.
٢- **توحيد القصد و الطلب:** و يريدون به توحيد العبادة.

و تقسيم التوحيد ليس حادثاً أحدثه ابن تيمية أو ابن القيم كما يردد أهل البدع و إنما ذكره الأئمة قبلهم كأبي حنيفة و الطحاوي و ابن منده و غيرهم إما نصاً أو إشارة.

الشرك و أقسامه

الشرك قسمان:

<u>أولا:</u> شرك أكبر: وهو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائص الله ،قال تعالى عن المشركين (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) ، وفي صحيح البخاري حديث ابن عباس أن النبي عليه الصلاة و السلام سئل أي الذنب أعظم، قال: (أن تجعل لله ندا وهو خلقك) و الشرك الأكبر يكون في الربوبية و ذلك بنسبة شيء من أفعال الله للمخلوقين، كاعتقاد غلاة الصوفية أن الأقطاب و الأبدال يدبرون الكون، و يكون في الألوهية و ذلك بعبادة غير الله كدعاء الموتى و النذر و الذبح للأضرحة و الاستغاثة بغير الله كقول البوصيري مخاطبا النبي عليه الصلاة و السلام :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

يعني يا رسول الله عند نزول المصيبة العظيمة ليس لي أحد أستغيث به الا أنت.

و يكون الشرك الأكبر في الأسماء و الصفات كاعتقاد بعض الصوفية أن النبي عليه الصلاة و السلام يعلم الغيب، يقول البوصيري مخاطبا النبي عليه الصلاة و السلام :

فإن من جودك الدنيا و ضرتها و من علومك علم اللوح و القلم

و الشرك الأكبر يخرج العبد عن ملة الإسلام و يوجب الخلود في النار ، قال تعالى : (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة و مأواه النار) .

و كذلك فإن الشرك الأكبر يحبط العمل ، قال تعالى : (ولقد أوحي اليك و إلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك و لتكونن من الخاسرين) .

و الشرك الأكبر لا يغفر قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به) و المعنى أن الإنسان لو مات عليه لا يغفر له، و ليس المعنى أن من تاب من الشرك لا تقبل توبته.

وقد كان ترك الشرك وصية الصالحين لذراريهم، قال الله تعالى (و إذ قال لقمان لابنه و هو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) و كذلك فإن الشرك أخوف ما خافه الصالحون على أنفسهم و ذراريهم، قال تعالى عن خليله ابراهيم (و اجنبني و بني أن نعبد الأصنام).

<u>ثانيا:</u> شرك أصغر: وهو كل ما جاء تسميته في الشريعة شركا لكنه لم يصل إلى حد الشرك الأكبر يعني لم يكن فيه تسوية لغير الله بالله في شيء من خصائصه، مثال ذلك تعليق التميمة فإن معلق التميمة لم يعبد غير الله و لم ينسب شيئا من أفعال الله أو أسمائه أو صفاته لهذه التميمة أي لم يسو غير الله به، ولكن إن اعتقد أن التميمة تنفع و تضر بذاتها من دون الله وقع في الشرك الأكبر لأن الضر و النفع خاصان بالله، قال تعالى (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته) .

التميمة: كل ما يعلقه الانسان ليتم الخير له.

و الشرك الأصغر لا يخرج العبد عن ملة الاسلام و لا يوجب الخلود في النار و لا يحبط العمل كله و إنما قد يحبط العمل الذي خالطه كالرياء إذا دخل في العبادة.

فائدة: بعض العلماء يقسمون الشرك إلى ثلاثة أقسام: أكبر و أصغر و خفي، و يريدون بالخفي ما يتعلق بالقلب من رياء و إرادة للدنيا و نحو ذلك، و لكن الصحيح أن الشرك قسمان فقط و أن الشرك الخفي منه ما هو شرك أكبر كمحبة غير الله مثل محبة الله، و منه ما هو أصغر كالرياء و التعلق بالدنيا.

الحنيفية: لغة هي الإقبال على الشيء و الميل عما عداه.

و شرعا: هي الإقبال على التوحيد و الميل عن الشرك و هي دين ابراهيم الذي أمر الله نبيه أن يتبعه فقال: (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) .

و أمر المؤمنين باتباع هذه الملة فقال (قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا) .

(مخلصا له الدين): الدين هو العمل، و الإخلاص: هو تصفية العمل من الشرك .

(وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون): وجه الدلالة أن ابن عباس فسر (يعبدون)بـ :(يوحدون) وهذا الأمر و هو عبادة الله وحده لأجله خلق الله الخلق كما في الآية السابقة ، و لأجله أنزل الله القرآن لقوله تعالى (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله) ، و لأجله أرسل الله الرسل لقوله تعالى (و لقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله و اجتنبوا الطاغوت) ، و لأجله شرع الجهاد، قال تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله) يعني حتى لا يكون شرك و تكون العبادة كلها لله.

القاعدة الأولى:

الفائدة من هذه القاعدة أن تعلم حال كفار قريش، فقد كان كفار قريش يقرون بتوحيد الربوبية كما سبق في الآية ، و كما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات و الأرض ليقولن الله) وقد كانوا مقرين بالأسماء و الصفات و لم ينكروا إلا اسم (الرحمن) كما قال تعالى (وهم يكفرون بالرحمن) وقال تعالى (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) فلما أنكروا اسم الرحمن ذكر الله ذلك و أنكر عليهم و لو أنكروا غيره لذكره.

و أما توحيد الألوهية فقد كان كفار قريش ينكرونه و يعبدون غير الله معه، كما قال تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم و لا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) و قال الله عنهم (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون و يقولون أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون).

إذا عرفت ذلك عرفت سبب امتناع كفار قريش عن قول **لا إله إلا الله،** وهو عبادتهم لغير الله، فدل ذلك أن معنى كلمة التوحيد : لا معبود بحق إلا الله ، وهذا أهم المهمات، وقد دل على هذا المعنى أمور أخرى منها :

١- **تفسير القرآن بعضه لبعض،** فقد قال تعالى (و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) بين الله في هذه الآية أن جميع الرسل بعثوا بـ : **لا إله إلا الله،** وقد دلت الآيات الأخرى أن معنى هذه الكلمة يرجع إلى عبادة الله و حده، فلما ذكرت دعوة الرسل مفصلة ذكر الله أن أول ما يؤمرون به هو عبادته وحده، قال تعالى: (و إلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) و قال تعالى (و إلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) و قال تعالى (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) فدل تفسير القرآن بعضه لبعض أن معنى كلمة التوحيد راجع إلى عبادة الله وحده.
٢- **قد أخبر النبي عليه الصلاة و السلام** أن كلمة التوحيد هي أول ما يدعى اليه أهل الكتاب، فقال عليه الصلاة و السلام لمعاذ لما أرسله إلى اليمن (فليكن أول ما تدعوهم إليه :لا إله إلا الله) ، وبين الله في كتابه أن أول ما يدعى إليه أهل الكتاب هو عبادة الله وحده، فقال تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله) فهذا يدل على أن معنى كلمة التوحيد يرجع إلى عبادة الله وحده.

٣- **أن الإله في اللغة هو المعبود،** قال رؤبة بن العجاج:

لله در الغانيات المدّه سبحن و استرجعن من تألهي

يمدح نفسه بأن الغانيات الماجنات تبن إلى الله و استرجعن إليه لما رأين من تأله رؤبة.

تنبيه: قد فسر الأشاعرة كلمة التوحيد بقولهم : **لا قادر على الاختراع إلا الله،** أي ردوا تفسير كلمة التوحيد إلى الربوبية، و هذا مع كونه في غاية البطلان مخالفا لكل ما سبق يلزم منه أن كفار قريش مسلمون موحدون لإقرارهم به.

ملاحظة: قال الشيخ ابن عثيمين :تفسير (لا إله إلا الله) : **لا معبود حق إلا الله** أولى من تفسيرها بـ: **لا معبود بحق إلا الله،** و ذلك من وجهين:

١- أنه أوفق للقرآن، قال تعالى (ذلك بأن الله هو الحق و أن ما يدعون من دونه الباطل)
٢- أن قولنا (بحق) يحتاج إلى تعليق و تقدير محذوف، وذلك أن (بحق) جار و مجرور يحتاجان إلى تعليق بخبر محذوف تقديره كائن، و لو قلنا (لا معبود حق) لما احتجنا إلى تعليق فإن (حق) خبر.

القاعدة الثانية:

بعد أن ذكر المؤلف في القاعدة الأولى أن كفار قريش لم يكونوا مشركين في الربوبية و إنما وقع شركهم في الألوهية و العبادة بين في هذه القاعدة حجة المشركين في عبادتهم لغير الله، و هي أنهم يزعمون أن عبادة الصالحين تقربهم إلى الله و أن الصالحين يشفعون لهم عند الله، ثم ذكر بطلان هذه الحجة ببيان أن الشفاعة قسمان :

١- **مثبتة :** يثبت نفعها و هي التي توافر فيها شرطان : إذن الله للشافع و رضاه عن المشفوع، و كما قال تعالى (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء و يرضى) و لا يرضى الله إلا عمن كان موحدا.
وفي البخاري عن أبي هريرة قال : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال: (أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه).
٢- **منفية :** نفى الله نفعها فهي ما كان فيها شرك .

القاعدة الثالثة:

ساق المؤلف هذه القاعدة ليبطل حجة المشركين في هذا العصر الذين يعبدون القبور و الأضرحة و الصالحين، ثم إذا أتينا بالأدلة التي تنهاهم عن الشرك و عن عبادة غير الله قالوا لنا: هذه الآيات في المشركين الأوائل و قد كانوا يعبدون الأصنام و الأحجار، أما نحن فنعبد الأولياء و الصالحين، فرد عليهم المؤلف و أبطل حجتهم من وجهين:

١- **قوله تعالى:** (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله) و هذا نص عام فيه الأمر بأن تكون العبادة كلها لله و حده و يضاف اليه كل نص عام فيه النهي عن عبادة غير الله مهما كان، كما قال تعالى (و أن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) و (أحدا) نكرة في سياق النهي و النكرة في سياق النهي تعم أي اذا جاءت بعد النهي تفيد العموم.
٢- قد بين المؤلف بطلان ما ذكره مشركو العصر و ذلك ببيان أن من المشركين الأوائل من كان يعبد الصالحين و الملائكة و الأنبياء و كان النصارى يعبدون عيسى، و ثبت في البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى (لا تذرن آلهتكم و لا تذرن ودا ولا سواعا و لا يغوث و يعوق و نسرا) قال: هؤلاء أسماء رجال صالحين فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا و سموها بأسمائهم ففعلوا و لم تعبد حتى اذا هلك أولئك و تنسخ العلم عبدت.

(دليل الشمس و القمر): أي الدليل على أن من المشركين الأوائل من كان يعبد الشمس و القمر، وهو **قوله تعالى:** (لا تسجدوا للشمس و لا للقمر).

وجه الدلالة: أنه نهاهم عن عبادة الشمس و القمر و لو كانوا لا يعبدونها لكان نهيهم لغوا من القول .

و دليل الملائكة: **قوله تعالى:** (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة و النبيين أربابا) وجه الدلالة: أن الله نفى أن يكون قد امرهم بعبادة الملائكة و النبيين فدل هذا أن منهم من كان يعبد الملائكة و النبيين و يزعم أن الله أمره.

و دليل الصالحين: **قوله تعالى:** (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) ثبت في البخاري أن هذه الآية نزلت في ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن و تمسك هؤلاء بدينهم، فكان الإنس بذلك يعبدون صالحي الجن الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة أي القربة.

(حديث أبي واقد الليثي):

(سدرة): نخلة ، **(يعكفون):** يلازمون، **(ينوطون):** يعلقون.

وجه الدلالة: أن المشركين الأوائل كانوا يعبدون الأشجار و يلازمونها و يعلقون بها أسلحتهم.

القاعدة الرابعة :

ذكر المؤلف في هذه القاعدة أن مشركي هذا الزمان أشد شركا من الأوائل و ذلك من جهة واحدة وهي أن المشركين الأوائل كانوا يشركون في الرخاء فقط و أما مشركو زماننا فهم يشركون في الرخاء و الشدة بل كلما زاد عليهم الكرب كلما زادوا في الشرك، و يضاف إلى ذلك أمور منها :

١- أن المشركين الأوائل كانوا مقرين بتوحيد الربوبية أما مشركو زماننا فينسبون أفعال الله لغيره.
٢- أن مشركي زماننا لا يعرفون معنى (لا إله إلا الله) لذلك يقولونها و يفعلون ما يناقضها، و أما الأوائل فكانوا يعرفون معناها لذلك امتنعوا عن قولها.

ولكن هذا أمر نسبي، فإن مشركي زماننا أحسن حالا من الأوائل من جهة إقرارهم بالبعث و اليوم الآخر و تصديقهم للنبي عليه الصلاة و السلام .

شرح الأصول الثلاثة

يجب علينا تعلم أربع مسائل:

الوجوب حكم شرعي لا بد أن يستند إلى دليل، و الدليل على وجوب هذه الأمور النصوص الكثيرة التي فيها الأمر بذلك و التبصر فيه.

قال ابن القيم: جهاد النفس على أربع مراتب:

الأولى : أن يجاهدها على تعلم الهدى و دين الحق الذي لا فلاح و لا نجاة لها في معاشها و معادها إلا به .

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد تعلمه.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه و تعليمه من لا يعلمه.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على ذلك و تحمل مشاق الطريق .

فمن استكمل هذه المراتب كان من الربانيين.

و أول المسائل التي ذكرها المؤلف العلم، و ذلك لأنه الأصل الذي يبنى عليه كل عمل، بل لا يستقيم التوحيد و لا تصح شهادة إلا به، قال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) و قال تعالى (إلا من شهد بالحق و هم يعلمون).

و أما العمل فلأن العلم بلا عمل وبال على صاحبه، و الله تعالى لما ذكر تفضيل أهل العلم على غيرهم كان ذلك التفضيل مسبوقا ببيان جهدهم و اجتهادهم في العبادة، فقال الله تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا و قائما يحذر الآخرة و يرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون) و ثبت في البخاري أن النبي عليه الصلاة و السلام لما أُخذ إلى الأرض المقدسة رأى رجلا مستلقيا على قفاه و رجلا قائما عند رأسه بفهر – حجر ملء الكف – فيشدخ بها رأس المستلقي ثم يتدهده الحجر فإذا اتبعه أخذه و رجع فيجد الرأس قد التأم فيشدخ الرأس مرة أخرى فلا يزال كذلك إلى أن تقوم الساعة.

فلما سأل النبي عليه الصلاة و السلام عنه: قيل له هذا رجل آتاه الله القرآن فنام عنه ليله و لم يعمل به في نهاره فلا يزال كذلك إلى أن تقوم الساعة.

و أما الدعوة فهي سبيل الأنبياء، قال تعالى (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا و من اتبعني) ، وقال النبي عليه الصلاة و السلام (بلغوا عني و لو آية) و قد أخذ الله الميثاق على أهل العلم بالبيان فقال (و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس و لا تكتمونه) فإذا سار الإنسان في هذا الطريق فتعلم و عمل و دعا لا بد أن يبتلى كما قال ورقة بن نوفل للنبي عليه الصلاة و السلام (ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي)، فكل من حمل دعوة الأنبياء و نهض بميراثهم لا بد أن يناله ما نالهم من الأذى و البلاء، و لا بد أن يسلط عليه من شياطين الجن و الإنس من يحاربه ليل نهار و يناصبه العداء، قال تعالى (و كذلك جعلنا كل نبي عدوا شياطين الإنس و الجن يوحي بعضهم إلى بعض)، و إذا كان الأمر كذلك فلا بد من الصبر ولهذا قال لقمان لابنه (يا بني أقم الصلاة و أمر بالمعروف و انه عن المنكر و اصبر على ما أصابك) فأوصاه بالصبر بعد الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.

العلم شرعا: هو معرفة الحق بدليله، و ما خلا من الدليل فلا يسمى علما بالإجماع الذي حكاه ابن عبد البر لذلك قال المؤلف: **بالأدلة**.

و العلم قسمان:

١- **فرض عين :** وهو ما لا يسع المكلف جهله ، كمعرفة أصول الايمان و أركان الإسلام و العلم بما يجب من كيفيات العبادات و واجباتها و مبطلاتها و ما يجب اجتنابه من المحرمات و ما يحتاج إليه من المعاملات و هذا العلم هو المقصود بقول النبي عليه الصلاة و السلام (طلب العلم فريضة على كل مسلم).
٢- **فرض كفاية :** و هو القدر الزائد من العلم على ما يحتاج إليه المكلف كعلم الفرائض و أصول الفقه و الجنايات و الحدود و نحو ذلك.

و ابتدأ المؤلف المسائل بالعلم لأنه الأساس الذي لا يصح عمل بدونه، قال ابن القيم:

و الجهل داء قاتل و شفاؤه أمران في التركيب متفقان

نص من القرآن أو من سنة و طبيب ذاك العالم الرباني

ملاحظة: فرض العين واجب على كل مسلم بعينه يأثم بتركه، و فرض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين.

الأدلة قسمان :

١- **أدلة سمعية :** و هي الوحي من الكتاب و السنة و تسمى شرعا و نصا و نقلا و خبرا.
٢- **أدلة عقلية :** وهي ما ثبت بالنظر و الاستدلال كقولنا: **لابد لكل مصنوع من صانع**.

سورة العصر:

وجه الدلالة من سورة العصر على المراتب الأربعة أن الله تعالى أقسم بالعصر أن جميع الناس في خسارة و نقصان إلا من ذكر، وهم: من آمن، و لابد لتحقيق الايمان من علم فلا يمكن الايمان بمجهول، فيكون في قوله (آمنوا) دليل على العلم، وفي قوله: (عملوا الصالحات) دليل على العمل، و في قوله:(و تواصوا بالحق) دليل على الدعوة و في قوله: (وتواصوا بالصبر) دليل على الصبر على الأذى فيه.

قول الشافعي:

اللفظ المنقول عن الشافعي : (لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم) وهذا اللفظ أدق و ذلك لأن الله لو لم ينزل إلينا إلا سورة العصر لما استطعنا أن نعبده عبادة تفصيلية.

(فاعلم أنه لا إله إلا الله و استغفر لذنبك):

استدل البخاري و المؤلف تبعا له بهذه الآية على الابتداء بالعلم قبل القول و العمل مع أن الآية جاء العطف فيها بالواو و الواو لا تقتضي تعقيبا و لا ترتيبا، فإن قيل ما وجه الدلالة؟ **فالجواب:** أن القاعدة عند العلماء أن البداءة تقتضي الاهتمام و التقديم، لذلك لما أراد النبي عليه الصلاة و السلام السعي بين الصفا و المروة بدأ بالصفا و قرأ الآية (إن الصفا و المروة من شعائر الله) و قال: (أبدأ بما بدأ الله به).

المسائل الثلاث:

<u>الأولى:</u> و الأدلة على معنى هذه المسالة كثيرة منها قوله تعالى (أم حسبتم أنما خلقناكم عبثا و أنكم الينا لا ترجعون) و قوله تعالى (وما خلقنا السموات و الأرض و ما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار).

و أما الدليل الذي ذكره المؤلف (إنا أرسلنا إليكم رسولا) فهو يدل على الأمر الثاني في المسألة الأولى و هو قول المؤلف: بل أرسل إلينا رسولا فمن أطاعه دخل الجنة و من عصاه دخل النار.

<u>الثانية:</u> (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) وجه الدلالة: أن (أحدا) نكرة في سياق النهي فهي تعم كل ما يصلح له لفظ (أحدا).

الدعاء قسمان :

١- **دعاء طلب :** و يسمى دعاء مسألة، و هو أن تسأل الله تعالى فتقول: يا الله اغفر لي و يا الله ارحمني و نحوه .
٢- **دعاء عبادة :** فكل عبادة تسمى دعاء، و ذلك لأن العابد يطلب بلسان حاله رضا الله و الجنة ، قال الله تعالى عن نبيه إبراهيم أنه قال لأبيه و قومه : (و أعتزلكم و ما تدعون من دون الله) ثم قال : (فلما اعتزلهم و ما يعبدون من دون الله) فأطلق الدعاء على العبادة.

<u>الثالثة:</u> أراد بها المؤلف تقرير عقيدة الولاء و البراء و هي من أصول الدين، و **خلاصتها**: محبة أهل الايمان على قدر ايمانهم، و هذه المحبة تقتضي المناصرة و بغض الكفار بغضا مطلقا و بغض أهل المعاصي على قدر معاصيهم.

و هذه العقيدة قد جاء الامر بها في القرآن كثيرا، قال تعالى: (قد كان لكم أسوة حسنة في ابراهيم و الذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم و مما تعبدون من دون الله كفرنا بكم و بدا بيننا و بينكم العداوة و البغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) و قال تعالى:(يا أيها الذين امنوا لا تتخذوا اليهود و النصارى أولياء) و قال تعالى :(و المؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء بعض).

وقال النبي عليه الصلاة و السلام كما في البخاري من حديث أنس :(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله و رسوله أحب اليه مما سواهما و أن يحب المرء لا يحبه إلا لله و أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار).

وهذه الآية التي ذكرها المؤلف (لا تجد قوما يؤمنون بالله و اليوم الآخر يوادون من حاد الله و رسوله و لو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) : ذكر أهل التفسير أنها نزلت في أبي عبيدة ابن الجراح قتل أباه يوم بدر، و في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير، و في أبي بكر الصديق همّ أن يقتل ابنه، و في عمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام.

و قد خالف في هذه العقيدة أهل الغلو و أهل الجفاء.

قال الأوزاعي رحمه الله: ما أمر الله بأمر إلا عارضه الشيطان بإحدى خصلتين لا يبالي بأيهما ظفر إما الغلو و إما الجفاء.

فأما أهل الغلو – مجاوزة الحد الذي أذنت به الشريعة – فإنهم أدخلوا في موالاة الكفار أمورا ليست من الموالاة في شيء، كالجلوس معهم أو أخذ السلاح منهم، كما تجد الآن بعض الفصائل تكفر الفصائل الأخرى لأنها تأخذ السلاح من الكفار، فإن هذا ليس من الموالاة في شيء بل هو من الاستعانة الجائزة، و النبي عليه الصلاة و السلام قد ثبت عنه في البخاري أنه استعان يوم فتح مكة بخزاعة مسلمها و كافرها، و كذلك دخل مكة بجوار كافر هو المطعم بن عدي، و كذلك استعان بصفوان بن أمية يوم حنين فأخذ منه سلاحا و أدراعا و كان كافرا.

و أما أهل الجفاء – هو التقصير و التفريط – فقد جوزوا محبة أصناف من الكفار كما يزعم القرضاوي و غيره أن الكفار الذين يعادون و يبغضون هم فقط الكفار الحربيون و أما غيرهم فلا يبغض و لا يعادى، و يستدلون لذلك بأن الشريعة جوزت الزواج من الكتابية فهي مودة أي محبة كما أخبر الله سبحانه.

و الجواب ان يقال:

إن الأدلة قد جاءت عامة لم يستثن منها أحد من الكفار فتشمل الحربي و المعاهد و المستأمن و الذمي، فيبغضون جميعا و من فرق بينهم فلا دليل عنده .

و أما تجويز الشريعة الزواج من الكتابية، فإن الزواج فيه حب دنيوي وهو لا يتنافى مع العداء الديني، و هذا الأمر يكون حتى مع الحربيين فإن الرجل اذا قاتل أباه الحربي فإنه يحبه حبا دنيويا و يبغضه بغضا دينيا.

التوحيد: هو إفراد الله بالعبادة، و الشرك: هو دعوة غيره معه.

عرف المؤلف التوحيد فلم يذكر إلا توحيد العبادة و عرف الشرك فلم يذكر إلا شرك العبادة و ذلك لأمرين:

١- تقرير أن توحيد العبادة هو المقصود من هذه المسالة.
٢- أن الشرك في العبادة قد شاع و انتشر على زمن المؤلف.

معرفة العبد ربه و دينه و نبيه:

هذه الأمور الثلاثة هي عينها أجوبة الأسئلة الثلاثة التي يسألها الميت في قبره،

<u>الأصل الأول: معرفة الله</u>

فإن قيل: كيف عرفت ربك؟ المؤلف ذكر طريقة واحدة في معرفة الله و هي النظر في الآيات و المخلوقات.

الله تعالى يعرف بأمور:

<u>أولا:</u> دلالة الشرع على وجود الله: فقد تضمن القرآن أخبارا و أحكاما تدل على وجود الله تعالى و على صدق الرسول، و هذه الأخبار على ثلاثة أقسام:

١- أخبار عن أمور ماضية و قصص عن أمور خالية قد شهد لها التاريخ و الواقع بالصدق و أنها من عند الله تعالى من عند خالق عليم، إذ ما الذي أخبر النبي عليه الصلاة و السلام و هو الأمي بنوح و سفينته و سبأ و نهرهم و سدهم و فرعون و صروحه و ثمود و نحتها البيوت في الجبال؟ هذه الأمور كلها لا سبيل لأمي يعيش في جزيرة العرب أن يعلمها لولا إخبار رب عليم له .
٢- أخبار عن أمور ستقع في المستقبل و قعت كما أخبر الله و رسوله سواء بسواء ، كالإخبار بهزيمة الروم للفرس و الإخبار بفتح اليمن و المدائن و الشام و القسطنطينية و الإخبار بخروج الخوارج و قتل عثمان و غير ذلك مما شهد الواقع بصدقه و استحالة كونه من عند بشر.

٣- أخبار عن أمور كونية شهد العلم بصدقها كمراحل خلق الجنين و إنزال الحديد من السماء و حمل الذباب في إحدى جناحيها داء و في الاخر دواء، و غير ذلك مما يستحيل أن يكون من عند بشر.

ثانيا: دلالة العقل على وجود الله: يستحيل في العقل أن يكون هذا الكون قد وجد صدفة من غير شيء، فتناسق الكون و انسجامه و جريانه على هذا النظام البديع يمنع الصدفة فيه، و ذلك أن الموجود صدفة يكون عشوائيا على غير نظام في أصل وجوده و في تطوره، و كذلك يستحيل في العقل أن يوجد الكون من غير موجد لأن كل حادث لا بد له من محدث و لو مر بشر بطريق فرأى حجرا قد و ضع فوق حجر لقال: من وضعه؟ و لامتنع في عقله غاية الامتناع أن وضع الحجر لا فاعل له، هذا في الحجر فما بالك في هذا الكون العظيم .

وهذا الذي أراده المؤلف بقوله: **يعرف الله بآياته و مخلوقاته،** يعني بالنظر فيها.

ثالثا: دلالة الحس على وجود الله: المراد بالحس ما يدرك بالحواس الخمسة و هي السمع و البصر و الذوق و الشم و اللمس، فقد دل الحس على وجود الله عن طريق آيات الأنبياء التي تسمى معجزات كانشقاق القمر و نبع الماء من بين أصابعه عليه الصلاة و السلام و حنين الجذع إليه و غيرها.

فإن قيل إن هذه الآيات لم تر فكيف تصنفها تحت دلالة الحس؟

فالجواب:

إن كثيرا منها قد نقل بالتواتر و التواتر حجة عقلية فمن وقع عنده تواتر لشيء يتيقن منه كأنه رآه.

و مما يذكره أهل العلم في دلالة الحس على وجود الله ما نراه و نسمعه من إجابة الداعين و غوث المكروبين.

رابعا: دلالة الفطرة على وجود الله: كل إنسان مركوز في فطرته أن له ربا و لا ينكر ذلك إلا معاند مستكبر، و أشد الخلق كفرا فرعون كان في قرارة نفسه مقر بوجود رب أرسل موسى كما قال الله عنه و عن قومه (و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلما و علوا) و كذلك أشد الناس بساطة يعرف في نفسه وجود رب له، قيل لأعرابي بم عرفت ربك؟ فقال: بنقض العزائم و صرف الهم يعني أ، الإنسان يعزم على شيء يريد فعله ثم لا يفعله و يهم بأمر ثم يفعل غيره ، فمن الذي نقض العزم و صرف الهمة.

(بآياته و مخلوقاته): الآيات و المخلوقات كلاهما مخلوقان و يذكر أهل العلم بينهما فرقا إذا جمعا و هو أن الآيات متحركة و المخلوقات ساكنة ، أما إذا أفردت الآيات و المخلوقات بالذكر فإنها تشمل الساكن و المتحرك.

و الرب هو المعبود: ليس مراد المؤلف بهذا أن الرب و المعبود بمعنى واحد و إنما الرب يرجع معناه إلى ما سبق من خلق و رزق و تدبير، و المعبود يرجع معناه إلى من عبد بدعاء و رجاء و سجود و نحو ذلك، و إنما مراده من هذا القول أن من أقر بربوبية الله فيلزمه أن يعبد الله وحده إذ لا يستحق العبادة إلا من انفرد بالخلق و التدبير و الملك فلذلك فإن الله يحتج على المشركين في مواطن كثيرة من كتابه على وجوب أن يفردوه بالعبادة و الألوهية لأنهم مقرون بربوبيته، قال تعالى:(أمن جعل الأرض قرارا و جعل خلالها أنهارا و جعل لها رواسي و جعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله) و قال تعالى:(يا أيها الناس اعبدوا ربكم).

الآيات التي ذكرها المؤلف فيها أن الله أمرهم بعبادته ثم ذكر بعد ذلك انفراده بالخلق و التدبير حجة عليهم.

شبهة و الجواب عنها:

قد تقرر سابقا أن كفار قريش يقرون بالربوبية، فإن قال قائل: كيف اتخذوا النبيين أربابا كما قال الله (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة و النبيين أربابا)؟، فالجواب من وجهين:

١- ليس المراد بقوله (أربابا) في هذه الآية أن الكفار الأوائل كانوا يعتقدون أن الملائكة و النبيين كانوا يخلقون و يرزقون و يدبرون، فمن المحال أن يكون الأمر كذلك لأن الله أخبرنا أنهم يعتقدون تفرده هو في هذه الأمور و قد سبقت الأدلة على ذلك.
٢- أن المراد بقوله أربابا في هذه الآية و ما كان مثلها ليس معنى الربوبية، و إنما المعنى ما تستلزمه الربوبية و هو العبادة ، فالمقصود بقوله (أربابا) يعني معبودين، لذلك لما سمع عدي بن حاتم (اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله) و كان نصرانيا فقال إنا لسنا نعبدهم، ففهم أن قوله (أربابا) بمعنى معبودين.

شبهة و الجواب عنها:

إن قيل : قد قررتم سابقا أن الإثبات لا يمنع المشاركة، و غاية ما في النصوص التي فيها أن الله منفرد بالربوبية و التي تحتجون بها: مجرد أن كفار قريش يثبتون أن الله هو الخالق الرازق المدبر و إثباتهم لهذه الأمور لا يمنع أنهم يعتقدون أن غير الله يشاركه فيها . و الجواب:

بل هذه النصوص لا تفيد مجرد الإثبات بل تفيد يقينا أن كفار قريش يعتقدون أن الله منفرد بالخلق و الرزق و التدبير، و ذلك أنها وقعت جوابا لسؤال من سائل يسفه آلهتهم و يتهمها بالنقص و العجز فلو كانوا يعتقدون أن لها شيئا من الخلق أو غير ذلك من أفراد الربوبية لذكروه جوابا، قال تعالى (و لئن سألتهم من خلق السموات و الأرض ليقولن الله) فلو كنوا يعتقدون بخالق غيره لذكروه جوابا و لو في موطن واحد فلما لم يذكروا أحدا علم أنهم يعتقدون أن الله منفرد بهذه الأشياء.

و العبادة المذكورة في القرآن قسمان :

<u>الأول :</u> عبادة شرعية : تكون بالخضوع لأمر الله الشرعي، و هي خاصة بالمؤمنين و هي التي سبق الكلام عنها، و هي المذكورة بقول الله تعالى : (و عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا)، و في قوله تعالى: (إياك نعبد) و نحو ذلك .

<u>الثاني :</u> عبادة كونية : و هي الخضوع لأمر الله الكوني، و هي عامة للمؤمن و الكافر، و هي المذكورة في قول الله تعالى : (إن كل من في السماوات و الأرض إلا آتي الرحمن عبدا).

فإن قيل: كيف يعرف كون الشيء عبادة شرعية ؟ **فالجواب:** يعرف ذلك بأمور منها :

١- **أن يأمر الله به**: كقوله تعالى : (فصل لربك و انحر).
٢- **أن يجعله شرطا للإيمان**: كقوله تعالى : (و خافون إن كنتم مؤمنين)، أو أن يجعله شرطا للإسلام كقوله تعالى : (فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين).
٣- **أن يرتب على فعله ثوابا أو أن يمدح فاعله:** كقوله تعالى : (هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب).
٤- **أن يسوقه مساق المدح:** كقوله تعالى : (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات و يدعوننا رغبا و رهبا).

(فمن صرف منها شيئا لغير الله فهو مشرك كافر) :

و ذلك لأن العبادة خاصة بالله فمن صرف منها شيئا لغير الله فقد سوّى غير الله بالله في شيء من خصائصه.

و كل عبادة يمكن أن يستدل على أن صرفها لغير الله شرك و محرم بطريقتين :

الطريقة الأولى : أن تثبت أن هذا الشيء عبادة ثم تستدل بالأدلة العامة على أن صرف العبادة لغير الله شرك .

الطريقة الثانية : أنه في الغالب أن كل عبادة لها دليل خاص على أنها خاصة بالله لا تجوز لغيره .

مثال ذلك : الذبح: يمكن أن يستدل على عدم جواز صرفه لغير الله بالطريقتين:

١- فأما الطريقة الأولى : فنقول: إن الله أمر بالذبح فدل هذا أنه عبادة و العبادة خاصة بالله ، قال تعالى : (و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) فإذا كان كذلك فصرفها لغير الله شرك .
٢- و أما الطريقة الثانية : فيوجد دليل خاص على عدم جواز الذبح لغير الله، و هو قوله عليه الصلاة و السلام :(لعن الله من ذبح لغير الله) .

و الفائدة من ذكر هذا أن كثرة الطرق في الرد على المخالفين أبلغ في إقامة الحجة عليهم و دفع باطلهم .

تنبيه: الأمور التي سيذكرها المؤلف و هي الدعاء و الخوف و التوكل و الذبح -------الخ ، تنقسم إلى قسمين :

١- **قسم لا يأتي إلا عبادة :** كالتوكل، فالتوكل لا يكون إلا عبادة فهذا لا يجوز إطلاقه على غير الله و إطلاقه على المخلوق شرك .
٢- **قسم يأتي عبادة وغير عبادة:** كالمحبة و الخوف فهذا القسم يجوز إطلاقه على غير الله في الوجه غير التعبدي.

قوله تعالى : (و من يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون):

وجه الدلالة من الآية: أنها جعلت من دعا غير الله من الكافرين ، و الدعاء المقصود هنا هو دعاء العبادة فيشمل جميع أنواع العبادات ، و قوله تعالى : (لا برهان له به) وصف كاشف لا مفهوم له و المراد منه أن كل من دعي غير الله فلا برهان للداعي على عبادته ، و ليس المراد أن بعض دعاء غير الله لصاحبه عليه برهان .

فائدة : الأوصاف قسمان :

١- **أوصاف كاشفة :** هي الأوصاف التي لا مفهوم لها و لا يخرج بها شيء من أفراد الموصوف كقولك : السماء التي فوقنا تمطر ، فقولك **(التي فوقنا)** هذا وصف كاشف لا يخرج به سماء ليست فوقنا فلا مفهوم له .
٢- **أوصاف مقيدة :** فهي الصفة التي لها مفهوم يقيد الموصوف كقولك: المجاهدون الشرفاء ، هذا وصف مقيد يخرج به من لم يكن شريفاً .

(الدعاء مخ العبادة) :

هذا الحديث أخرجه أحمد و الترمذي من حديث أنس و هو ضعيف لأن في إسناده عبد الله بن لهيعة ، و يغني عنه ما أخرجه الترمذي و صححه من حديث النعمان بن بشير مرفوعاً: (الدعاء هو العبادة) .

فائدة: الحديث المرفوع: يكون من كلام النبي عليه الصلاة و السلام، **و الموقوف :** ما كان من كلام الصحابة ، و **المقطوع :** ما كان من كلام التابعين.

قوله تعالى: (و قال ربكم ادعوني استجب لكم) :

وجه الدلالة: أنه أمر بالدعاء فهو عبادة، فإذا كان عبادة فصرفه لغير الله شرك أكبر .

و دعاء غير الله تعالى يكون شركاً أكبر في أحوال :

١- **في طريقة الطلب** : فإن دعا أحداً بذل و خضوع و محبة كدعاء الله صار الدعاء شركاً أكبر، و من دعا أحداً بهذه الطريقة فقد اتخذه إلهاً ، قال الله تعالى : (و لا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين).

٢- **في الأمر المطلوب :** و ذلك بأن دعا أحداً في أمر لا يقدر عليه إلا الله، كمن طلب من ولي منح ولد أو إنزال مطر فهذا شرك أكبر .

٣- **دعاء الموتى :** و هو شرك أكبر على كل حال، قال الله تعالى : (و الذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم و لو سمعوا ما استجابوا لكم و يوم القيامة يكفرون بشرككم و لا ينبئك مثل خبير)، فقد بين الله تعالى في هذه الآية أن الأصنام و الأموات و كل من دعي من دونه لا يملكون حتى القطمير (القشرة التي تحيط بنواة التمرة) ، و بين الله فيها أن الموتى لا يسمعون دعاء من يدعوهم و لا يستجيبون له و يكفرون يوم القيامة بشركه، و مثل هذه الآية قوله تعالى : (و من أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة و هم عن دعائهم غافلون و إذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً و كانوا بعبادتهم كافرين): يعني لا أحد أضل ممن فعل ما سبق ، فقوله : (و من أضل) استفهام يراد به النفي و هو أبلغ من النفي المجرد لأنه يكون مشرباً بالتحدي ، يعني إن كان هناك أضل من هذا فأتوني به .

و إنما جعلت الشريعة دعاء الموتى شركاً لأمرين :

أ- **أن من دعاهم لا بد أنه يعتقد أنهم يعلمون الغيب** إذ كيف يسمع البدوي دعاء من يدعوه من الأماكن البعيدة ؟! و كيف يطلب مشركو الشام المدد من الجيلاني في العراق؟! فلا بد أنهم يعتقدون أن هؤلاء الموتى يعلمون الغيب و علم الغيب خاص بالله ، قال الله تعالى : (قل لا يعلم من في السماوات و الأرض الغيب إلا الله).

ب- **أن من دعاهم يعتقد أن الموتى يستطيعون تحصيل الأشياء دون مباشرة أسبابها** و ذلك أن الله تبارك و تعالى قد جعل لكل شيء سبباً ، فمن أراد أن يوقد ناراً لا بد أن يأتي بوقود و ما يشعل به النار ، و لا يستطيع مخلوق إيجاد نار من غير سبب و إنما هذا خاص بالله ، و الدليل قوله تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)،و الموتى لا يستطيعون مباشرة شيء من الأسباب الدنيوية فقد انقطعوا عن الدنيا ، قال الله تعالى: (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون)، فكل من دعا ميتاً لا بد أنه يعتقد أنه يستطيع إيجاد الشيء دون سبب و هذا خاص بالله كما تقدم .

تتمة : الموتى لا يسمعون ، قال الله تعالى : (إن الله يسمع من يشاء و ما أنت بمسمع من في القبور)، و قال تعالى : (إنك لا تسمع الموتى و لا تسمع الصم الدعاء)، و يستثنى من ذلك أن الميت يسمع قرع نعال من يدفنه بعد تركهم للقبر كما جاءت بذلك الأحاديث و يستثنى من ذلك أيضاً ما حصل للنبي عليه الصلاة و السلام على سبيل المعجزة يوم بدر لما رمى قتلى الكفار في القليب ثم خاطبهم و قال للصحابة : (ما أنتم بأسمع لي منهم) .

و لو تنزلنا مع المخالفين في أن الموتى يسمعون فإنهم لا يسمعون دعاء من يدعوهم من دون الله بنص القرآن ، قال تعالى : (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم)، و كذلك فإن الموتى إذا ماتوا انقطعوا عن الدنيا تماماً و صاروا إلى حياة برزخية لا يعلم حقيقتها إلا الله ، قال الله تعالى : (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها و من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون)، و الميت لا يعلم شيئاً عن أحوال من تركهم حتى النبي عليه الصلاة و السلام ، ثبت في البخاري من حديث ابن مسعود مرفوعاً :(أنا فرطكم على الحوض ألا و ليذادن رجال عن الحوض كما يذاد البعير الضال ، فأقول : يا رب أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك) .

فهذا النبي عليه الصلاة و السلام لم يعلم ما حدث بعده ، وكذلك عيسى عليه السلام إذا سأله الله يوم القيامة عمن اتخذه إلهاً ، أجاب : (و كنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيبَ عليهم).

شبهة:

بعضهم يقول إننا ندعو أصحاب القبور فيستجاب لنا فهذا دليل على جواز دعائهم؟

والجواب: أن حصول المقصود من شيء معين لا يدل على جوازه فحصول الربح من الربا لا يدل على جوازه .

كذلك فإنما يحصل لهؤلاء الذين يدعون الموتى من استجابة لهم في بعض الأحيان إنما هو من فتنة الله لهم لما تركوا أمر الله بإفراده بالدعاء ، قال الله تعالى : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) و قال تعالى : (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً)، و ثبت أن يأجوج و مأجوج إذا ظنوا أنهم قتلوا أهل الأرض يقولون لنحاربن أهل السماء فيرسلون حرابهم إلى السماء فترجع إليهم تقطر دماً ، كل هذا من فتنة الله لهم .

٤- **دعاء الحي الغائب :** و هو شرك أكبر ، و ذلك لأن من دعاه لم يدعه إلا بعد أن اعتقد أحد أمرين : إما أنه يعلم الغيب أو أنه يسمع البعيدات و كلا الأمرين خاصين بالله.

و أما دعاء الحي الحاضر الذي يسمع في أمر يقدر عليه فهذا مباح كأن تقول : يا أحمد صبّ لنا شاياً ، و قد قال الله تعالى : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً).

دليل الخوف قوله تعالى : (و خافون إن كنتم مؤمنين): وجه الدلالة على أن الخوف عبادة أنه أمر به و جعله شرطاً للإيمان ، والخوف يأتي عبادة و يأتي غير عبادة ، فمن إطلاقه على غير الوجه التعبدي قوله تعالى : (و إن خفتم شقاق بينهما): وجه الدلالة من الآية أنه لو كان الخوف شركاً على كل حال لكان خوف الشقاق شركاً.

و الخوف من غير الله أقسام :

١- **خوف السر** : و هو أن يخاف من الموتى و الأولياء أن يصيبوه بالمصائب و نحو ذلك فهذا شرك أكبر.
٢- **الخوف الذي يؤدي إلى ترك واجب،** كأن يترك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر أو الجهاد لغير عذر سوى خوف الناس فهذا محرم، لقوله تعالى (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم و خافون إن كنتم مؤمنين) فقد نهى الله عن الخوف من أولياء الشيطان الذين يأمرون بترك الجهاد .
٣- **الخوف الطبيعي :** كالخوف من النار أن تحرقه أو من الماء أن يغرقه أو من سلطان جائر أن يبطش به فهذا الخوف مباح ، و لكنه إن أدى إلى ترك واجب أو فعل محرم من غير إكراه صار حراماً .

الرجاء : هو طمع حصول شيء قريب المنال ، و يأتي الرجاء غير عبادة و يطلق على غير الله ، قال الله تعالى : (و القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً) وجه الدلالة أن من النساء من ترجو نكاحاً فأطلق الرجاء على النكاح.

التوكل : هو اعتماد القلب على الله في جلب خير أو دفع ضر مع فعل الأسباب، و الصحيح أن التوكل خاص بالله لا يطلق على غيره و قوله تعالى : (و على الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) يستدل به على اختصاص الله بالتوكل بطريقتين:

١- أن الله أمر بالتوكل و جعله شرطاً للإيمان فهو خاص به .
٢- أنه قال : (و على الله فتوكلوا) أصل الكلام أن يقول : توكلوا على الله ، لكنه قدم الجار و المجرور و أخر الفعل (فتوكلوا) ، و تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر و الاختصاص .

(إنهم كانوا يسارعون في الخيرات و يدعوننا رغباً و رهباً و كانوا لنا خاشعين):

وجه الدلالة من الآية على أن الرغبة و الرهبة و الخشوع عبادات أن الله تعالى ذكرها في سياق المدح لأنبيائه .

الرغبة : هي محبة الوصول للمحبوب و تطلق على غير الله ، قال الله تعالى : (و ترغبون أن تنكحوهن).

الرهبة : هي الخوف المصحوب بعمل و تطلق على غير الله ، قال الله تعالى : (ترهبون به عدو الله) فالله سبحانه و تعالى حضنا على إرهاب أعدائنا و لو كان إرهابهم شركاً لما أمر الله بإيقاع الشرك فيهم .

الخشوع : هو الخضوع و الانكسار ، و لا يطلق على غير الله .

الخشية : الخوف المبني على العلم ، قال الله تعالى : (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء) و قوله تعالى : (فلا تخشوهم و اخشون) دلت على إفراد الله بالخشية من جهتين : أنه نهى عن خشية غيره، و أمر بخشيته .

و تأتي الخشية غير عبادة فتطلق على غير الله : كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر مرفوعاً: (فإذا خشي أحدكم الصبح فليصل ركعة توتر له ما قد سبق) .

الإنابة : هي الرجوع إلى الله و العودة إليه، قال تعالى(و أنيبوا إلى ربكم و أسلموا له)

الاستعانة : و هي طلب العون و تطلق على المخلوق فيما يقدر عليه ،قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر و الصلاة)، و أما الاستعانة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله فهي شرك أكبر .

الاستعاذة : هي الاعتصام و الالتجاء إلى الله تعالى في شر وقع في الإنسان أو يخشى وقوعه ، و تطلق الاستعاذة على غير الله كما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر (أن امرأة كانت تجحد العارية فاستعاذت بأم سلمة حتى لا تقطع يدها).

الاستغاثة : هي استعانة في حال الكرب و الشدة ، و وجه الدلالة من قوله : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) أنه رتب ثواباً و هو الاستجابة فدل هذا على أنه عبادة ، و يجوز الاستغاثة بالحي الحاضر في أمر يقدر عليه كما ثبت في البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً (يأتي الرجل يوم القيامة فيقول : يا رسول الله أغثني) .

و أما الاستغاثة بالموتى و الاستغاثة بأحد في أمر لا يقدر عليه إلا الله فهي شرك أكبر .

و يستدل البعض على جواز الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه بقوله تعالى (فاستغاثه الذي من شيعته)، و هذا الاستدلال فيه نظر و ذلك لأن هذا المستغيث كافر لا حجة بقوله، و موسى عليه السلام لم يكن قد أرسل بعد .

الذبح : هو إزهاق النفس و إراقة الدم تقرباً و تعبداً و هو خاص بالله صرفه لغير الله شرك على كل حال .

فإن قيل : ما تقول بالذبح للضيف ؟ فالجواب: هو جائز لأن المراد به الإكرام لا التقرب ، و ذلك لأن إزهاق النفس و إراقة الدم فيه ليست مقصودة لذاتها و إنما المقصود اللحم ، و لذلك لو حصل الإكرام بغير الذبح لفعله ، و أما الذبح التعبدي لله و الشركي لغيره فإن إراقة الدم فيه مقصودة لذاتها .

النذر : هو كالذبح لا يأتي إلا عبادة و صرفه لغير الله شرك .

و النذر نوعان :

١- **نذر مطلق :** وهو أن يوجب على نفسه فعل قربة من غير شرط و لا مقابل، كأن يقول : نذرت أن أصلي لله عشر ركعات ،و هذا النوع جائز .
٢- **نذر المقابلة :** و هو أن يوجب على نفسه فعل قربة مقابل شيء، كأن يقول : إن شفا الله مريضي فنذرت أن أصوم ثلاثة أيام ، وهذا القسم مكروه و قيل محرم لأن النبي عليه الصلاة و السلام نهى عن النذر و قال (إنه لا يأتي بخير و إنما يستخرج به من البخيل) .

فإن قيل: إن نذر المقابلة مكروه و إن كان مكروها فهو ليس بعبادة ، إذا يجوز النذر للأضرحة و الموتى، و الجواب على ذلك من وجهين:

١- أن النذر في الأصل عبادة و مجيئه على صفة مكروهة لا يبيح أن يصرف لغير الله، كما أن الصلاة بعد العصر مكروهة و لا يجوز أن تصرف لغير الله.
٢- أن نذر المقابلة فيه طلب، و هذا الذي نذر لضريح ليحصل مقابلا لم ينذر له إلا و قد اعتقد أنه يستطيع تحصيل هذا المقابل أي تحصيل المسببات دون مباشرة اسبابها، و هذال خاص بالله كما تقدم و اعتقاده في غيره شرك أكبر.

و ينقسم النذر من حيث ألفاظه إلى **صريح** يقول فيه: **نذرت كذا،** و إلى **محتمل** لا يذكر فيه لفظ النذر مثل : **لله علي كذا** .

و قد استدل المؤلف على أن النذر عبادة بقوله تعالى : (يوفون بالنذر) و هذه الآية لا يستدل بها على أن النذر عبادة ، وإنما هي في الوفاء بالنذر و بينهما فرق ، و الدليل الصحيح على أن النذر عبادة قول الله تعالى : (و ما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه) أي يجازي عليه و يثيب فرتب عليه ثواباً .

<u>الأصل الثاني : معرفة دين الإسلام</u>

يطلق الإسلام في الكتاب و السنة إطلاقين :

<u>الأول :</u> إطلاق عام و معناه ما ذكره المؤلف : الاستسلام لله بالتوحيد و الانقياد له بالطاعة و البراءة من الشرك و أهله .

و الإسلام بهذا المعنى دين جميع الأنبياء كما قال الله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام)، وقال عن إبراهيم عليه السلام : (و لكن كان حنيفاً مسلماً).

<u>الثاني :</u> يطلق على الإسلام الخاص و هو الدين الذي جاء به محمد عليه الصلاة و السلام ، قال الله تعالى : (و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه و هو في الآخرة من الخاسرين).

و معنى شهادة أن محمداً رسول الله :

هذه الأربع التي ذكرها المؤلف ليست معنى شهادة أن محمداً رسول الله و إنما هي مقتضياتها ، و معنى شهادة أن محمداً رسول الله: الإقرار و التصديق بأن محمداً بن عبد الله رسول بعثه الله .

و معنى (أن تلد الأمة ربتها) فهذا كناية عن أحد أمرين:

١- إما كثرة العقوق فتلد المرأة ابنا أو ابنة يعاملها معاملة السيد لجاريته من كثرة عقوقه.
٢- أو أن هذا كناية عن كثرة الفتوحات و كثرة السبايا فيجامع الرجل المسلم السبية فتلد منه ابنا يكون لها سيدا يعني هو حر و أمه سبية.

الأصل الثالث : معرفة النبي عليه الصلاة و السلام

ينذر عن الشرك و يدعوا إلى التوحيد .

الصحيح أن النبي عليه الصلاة و السلام كان يدعوا إلى التوحيد و إلى غيره و ينذر من الشرك و غيره ، و إنما خص المؤلف التوحيد و الشرك بالذكر لأنهما أعظم ما اهتم به الرسول عليه الصلاة و السلام فقد لبث في مكة أول الأمر سنين طويلة لا يدعو إلى شيء سوى إفراد الله بالعبادة و استمر على ذلك حتى قبض يدعو إلى إفراد الله بالعبادة و يحذر من الشرك و وسائله حتى أنه في مرض موته و هو يعاني سكرات الموت كان يقول :(لعنة الله على اليهود و النصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ، قالت عائشة : يحذر ما صنعوا . أي حتى لا يعبد الناس القبور.

و ثيابك فطهر : طهر أعمالك عن الشرك :

و هنا تفسير لبعض أهل العلم ، فسروا الثياب بالأعمال، و وجه ذلك أن العمل يلازم الإنسان كملازمة ثوبه له حتى يدخله الجنة أو النار .

الهجرة قسمان : هجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام كهجرة الصحابة من مكة إلى المدينة، و هجرة من بلد الخوف إلى بلد الأمن : كهجرة الصحابة من مكة إلى الحبشة .

و الهجرة فريضة بالإجماع على من لم يستطع إظهار دينه ، و لا تقتصر الهجرة على بلاد الكفر بل قد تكون من بلد البدعة .

حديث : (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة): أخرجه أحمد و صححه الألباني .

و أما حديث (لا هجرة بعد الفتح) فالمقصود به لا هجرة من مكة إلى المدينة بعد أن فتحت مكة و صارت بلد اسلام.

(و بعدها توفي عليه الصلاة و السلام): كما قال الله تعالى: (إنك ميت و إنهم ميتون) و قال تعالى (و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) و قال تعالى (و ما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت).

و لما جاء أبو بكر الصديق إلى النبي عليه الصلاة و السلام بعد أن مات قبله و قال (طبت حيا و ميتا) و كذلك قال: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات.

و في هذا رد على من زعم أن النبي عليه الصلاة و السلام لم يمت أو أنه ليس من الأدب أن يخاطب بهذا.

و أولهم نوح :

الآية التي استدل بها المؤلف ليست واضحة الدلالة على أن نوحاً أول رسول ، و أوضح منها ما ثبت في الصحيح في حديث الشفاعة و فيه :(اذهبوا إلى نوح فإنه أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض) .

الطاغوت : مأخوذ من الطغيان ، و الطغيان مجاوزة الحد، و أفضل تعريف للطاغوت ما ذكره المؤلف عن ابن القيم. و الرؤوس الخمسة التي ذكرها المؤلف للطواغيت فيها: من حكم بغير ما أنزل الله ، و هذه ليست على إطلاقها و إنما فيها تفصيل :

١- الحاكم بغير ما أنزل الله في بعض المسائل مع التزامه للحكم بما أنزل الله في ما يعرض له من القضايا ، و إنما يترك الحكم بما أنزل الله أحياناً لشهوة أو رشوة فهذا كفر أصغر بإجماع السلف ، و لا يسمى فاعله طاغوتاً .

أما إن حكم بغير ما أنزل الله لاعتقاده أن حكم الله لا يصلح لزمان معين أو لأن حكم غير الله أفضل من حكمه أو لاعتقاده أنه يجوز له الحكم بغير ما أنزل الله فهذا كفر أكبر .

٢- و أما من حكم بدستور كما هو حال كثير من الحكام اليوم فهذه مسألة حادثة اختلف علماء العصر فيها ، فمنهم من يقول هي كفر أكبر على كل حال، و هذا قول الشيخ محمد بن إبراهيم و الشيخ صالح الفوزان و الشيخ صالح آل الشيخ، و منهم من يقول إنه لا يكفر بمجرد الحكم بالدستور و إنما يكفر إذا استحل ذلك أو اعتقد أنه أفضل من حكم الله أو اعتقد أن حكم الله لا يصلح لهذا الزمان، و هذا القول هو قول ابن باز و الألباني و ابن عثيمين.

وصلى الله على عبده و نبيه محمد و على آله و صحبه و سلم .

تمت بفضل الله تعالى